- ١ -

الحرب

سيكولوجية الحرب. موقف العلماء والفرد والدولة من الحرب. النظرة إلى الموت. الحرب تحرر من الأوهام. موقف الفرد والدولة من الأخلاق. الخير الذى مصدره حب الناس والخير الذى مصدره النفاق الاجتماعى. غرائز الأنانية وتحولها إلى غرائز اجتماعية. توهم أن الأخيار أكثر من الأشرار. التكيف الثقافى وهزة الحرب.

* * *

نحن ننجرف إلى دوامة الحرب، وما يبلغنا من معلومات يأتينا من طرف واحد، وليس بوسعنا، ونحن نعيش على شفا الحرب، أن نتبين حقيقة التغيرات الضخمة التى جرت وتجرى، وما من بصيص يدل على المستقبل الوافد، ونحن عاجزون عن إدراك مغزى ما نزخر به من أحاسيس، ولا ندرى قيمة ما يصدر عنا من أحكام، ونحن مدفوعون إلى الاعتقاد بأن الحرب كانت أبداً أعتى الأحداث وأوسعها تدميراً لكل ما له قيمة إنسانية. ولم يحدث أن ضلل شئ أذكى العقول، ولا سفه شئ أسمى ما عرفه الإنسان بقدر ما تفعل الحرب. وحتى العلم يفقد حياده، ويتوسل به علماؤه لاختراع أسلحة تلحق الهزيمة بالأعداء، واندفع علماء الأنثروبولوجيا إلى إعلان انحطاط أصول الخصوم،

وادعى علماء النفس أن العدو مصاب فى عقله قد اعتلت منه الروح. ونحن يقيناً نبالغ فى تقدير كل هذه الشرور المتبدية، ولا يحق لنا أن نقارنها بشرور العصور التى سبقتنا لأننا لم نكن في تلك العصور، ولم نجربها ونعانى منها.

ولأننا لسنا أنفسنا ضمن القوات المتحاربة، ولسنا تروساً ضمن آلة الحرب الضخمة فإننا أقدر على إدراك التغرير الذى حاق بنا، والتضليل الذى أحاطونا به، ونحن ندرك أنهم يحجرون علينا وعلى نشاطاتنا زمن الحرب، ولا أظن إلا أننا لذلك نرحب بأى جهد، مهما كان ضئيلا، يتيح الفرصة لما قد أصاب قدراتنا من عى. وإنى لأميز عاملين من أبرز العوامل وأشدها إفصاحاً عن الأزمة التى تعتور المشاركين فى الحرب بشكل مباشر، وأحسب أن إنكارهما شئ صعب، ولا أجد من السهل مناقشتهما هنا. العامل الأول هو التحرر الذى تستحدثه الحرب من الأوهام، والثانى موقفنا الذى قد تغير من الموت، والذى فرضته علينا هذه الحرب، شأنها كشأن أى حرب أخرى.

وعندما أتحدث عن التحرر الذى تستحدثه الحرب من الأوهام، أدرك أن كل إنسان يعرف فوراً ما أعنيه، فلا لزوم أن نكون عاطفيين، وقد يكون الواحد منا على وعى بضرورة الحرب، ضرورتها البيولوجية والسيكولوجية فى اقتصاديات الحياة البشرية، ومع ذلك يظل يلعن الحرب، سواء فيما تستخدمه من وسائل أو تتذرع به من أهداف، ويتمنى بإخلاص أن تنتهى كل الحروب. والواقع أننا أقنعنا أنفسنا أن الحروب لا يمكن أن تتوقف طالما أن الشعوب تعيش فى ظروف متباينة أشد التباين، وطالما أن حياة الأفراد لها وزنها

المختلف فى كل أمة، وطالما أن الأخطار التى تباعد بين الأمم ليست إلا انعكاساً للطبائع المتمكنة فى العقول. ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن الحروب كانت دائماً بين شعوب بدائية وأخرى متحضرة، وأنها تندلع أبداً بين عصبيات متخلفة، وأنها قامت بين جنسيات دالت حضاراتها، وأنها ستستمر شغل البشرية الشاغل لوقت طويل. لكنى مع ذلك متفائل، فلقد كنا نتوقع من الدول الكبرى من الشعوب البيضاء[1]، التى آلت إليها زعامة الأجناس البشرية، والمعروفة باهتماماتها العالمية، والتى بفضل قواها الإبداعية يرجع تقدمنا التقنى نحو السيطرة على الطبيعة، ويعود ما أحرزناه من مكاسب علمية وإنجازات فنية. ومن شعوب كهذه كنا نتوقع أن يكون النجاح نصيبها فى اكتشاف طريقة أخرى لتسوية الصراعات على المصالح وفض سوء التفاهم. ونحن نعلم أن للفرد فى هذه الشعوب مستويات عليا من العرف الجارى لابد

---

(١) فرويد يعتقد أن الجنس الأبيض هو صاحب الحضارة المعاصرة، وأنها حضارة أوروبية الطابع، يهودية مسيحية الأصول، رأسمالية النظام. وهو يرى أن اليهودية خاصية اليهود، لكنها أفرزت المسيحية تخاطب بها الأمم، وأن الرأسمالية هى النظام الاقتصادى لليهودية، ومن ثم فاللواء معقود لليهودية على العالم طالما أن الحضارة السائدة هى هذه الحضارة الأوروبية التى سماتها هى تلك السمات السابقة. وإذا كان فرويد يتوجه بخطابه إلى الشعوب البيضاء الأوروبية، فإنما يخص منها اليهود، وسنراه فيما بعد يناقش العداء الذى تظهره المجتمعات الأوروبية لليهود بها، ويرجع ذلك إلى أن اليهود أقلية متميزة، والشعوب تتوجه فى بعض الأحيان بعدائها وجهة خاطئة، وبدلا من مهاجمة أعدائها الحقيقيين تتوجه بعدائها للأقلية المتميزة بفعل تضليل الدعاية، ومن ثم يحاول فرويد أن يقيم من الشعوب الأوروبية واليهود جبهة واحدة. (الحفنى)

أن يجرى سلوكه فى إطارها إذا رغب أن يكون نصيبه منها ما تقدمه هذه المجتمعات من امتيازات لصاحب السلوك الحميد. وكثيراً ما يكون العرف الاجتماعى زاجراً، يطالب الفرد بالكثير من ضبط النفس والتعفف عن الإشباع الغريزى، ويحظر عليه بشكل خاص أن يفيد مما تتيحه ممارسة الكذب والاحتيال من فرص هائلة تعرض له خلال عمليات التنافس التى تجرى بينه وبين غيره من الأفراد. وتعد الدولة المتحضرة هذه المعايير المقبولة الأساس الذى يقوم عليه وجودها، وتفرض العقوبات الصارمة على كل من تسول له نفسه العبث بها، وكثيراً ما نرفض حتى مجرد مناقشتها، ولذلك كان الأولى أن تكون الدولة هى البادئة باحترام هذه المعايير، ولا يعقل أن تتجه إلى الاعتداء على ما أقرت أنه أساس وجودها. ولكن الحرب اندلعت، وباندلاعها تبددت الأوهام. وكانت حرباً ضروساً تسفك وتدمر أكثر من أية حرب أخرى من الحروب الخوالى، بسبب التطور الهائل الذى استحدث فى أسلحة الهجوم والدفاع، ولكنها كانت كغيرها من الحروب، مريرة وعنيفة وحقودة وعنيدة، قوضت كل المواثيق المعروفة باسم القانون الدولى، التى التزمت بمراعاتها كل الدول فى زمن السلم، وتجاهلت ما للجرحى والخدمات الطبية من حقوق، ولم تميز بين عسكريين ومدنيين، ولم تراع حقوق الملكية، وداست فى سورة عمياء على كل ما صادفها كما لو أن الإنسانية بعدها لن تقوم لها قائمة ولن يكون بين البشر صفاء، وهتكت كل الأواصر ومزقت كل الروابط بين الشعوب المتناحرة، وتهدد بأن تخلف وراءها ميراثاً من الحقد والمرارة يجعل من المستحيل لزمن طويل تجديد هذه الروابط وبعثها.

والأمم يمثلها إلى حد ما الدول التى تصنعها، والدول تمثلها الحكومات التى تقوم عليها، وإن الفرد فى أى من هذه الأمم ليجد فى هذه الحرب فرصة عظيمة ليقتنع بما قد يطرأ على ذهنه أحياناً أيام السلم : أن الدولة تحظر عليه أن يرتكب إثماً، لا لأنها تريد أن تمحى هذه الآثام، بل لأنها تريد أن تحتكر ارتكابها لنفسها، كاحتكارها لتجارة الملح والدخان. وتسمح الدول المتحاربة لنفسها بارتكاب كافة الأعمال العدوانية وكل الآثام التى لو ارتكبها الأفراد لجللهم العار. وهى تنصب كل الأحابيل المعروفة ضد العدو، وتمارس الكذب المتعمد والغش بشكل يفوق كل ما عرف فى الحروب السابقة، وتطالب رعاياها بأقصى درجات الطاعة، وأكبر التضحيات، وتعاملهم فى نفس الوقت كما لو كانوا أطفالا تضرب حولهم سياجا متيناً من السرية والرقابة على الأخبار، وتحظر عليهم التعبير عن رأيهم، ويجردهم هذا الاضطهاد الفكرى من كل الدفاعات ضد تقلب الأحداث والإشاعات المغرضة التى تكون فى غير صالحهم.

وتحل هذه الدول نفسها من كافة التعهدات وكل المواثيق التى ارتبطت بها مع غيرها من الدول، ولا تخجل من الاعتراف بأنها تسعى لامتلاك القوة وتشتهيها بِنَهَم، ومع ذلك فهى تطالب الفرد باسم الوطنية، أن يقرها على ما تسعى إليه وما تشتهيه، وترفض أن يجابه طلبها بالرفض، وتأبى أن يطالبها بالامتناع عن إلحاق الضرر بالغير، وتتذرع بأن هذا الامتناع لن يكون فى صالحها، مع أن الفرد لو ساير العرف الأخلاقى بشكل عام، وامتنع عن كل تصرف غير متحضر من شأنه أن يلحق الأذى بالآخرين، لحاقه من ذلك هو

أيضاً ضرر لن يكون أقل فى أثره من الضرر الذى يلحقها. ورغم ذلك يندر أن تكافئه الدولة عما تقتضيه من تضحيات، ومن ثم فلن يدهشنا أن تكون نتيجة هذه النظرة تراخ فى العلاقات الدولية، وأن يتأثر الأفراد بما يلمسونه فى سياسة دولهم، وأن يكون هذا التأثير ضاراً بأخلاقهم، لأن الضمير الإنسانى ليس هو ذلك القاضى المتشدد الذى ينحو علماء الأخلاق إلى تصويره، وإنما هو فى أصله ليس أكثر من خوف الأفراد من المجتمع، ولو لم يكن المجتمع يحاسب أفراده لما زجروا أنفسهم وقهروا شهواتهم، ولارتكبوا من الأعمال أعنفها ومارسوا الخداع والغش، وتصرفوا بهمجية لا تناسب حضارتهم، ولأتوا بكل ما نصفه الآن بأنه مستحيل.

الحرب إذن تحررنا من أوهام السلم، وقد يعترض معترض على وصفنا لمعتقدات السلم بأنها أوهام، وقولنا إن الحرب تحطم الأوهام، فما نصفه بأنه أوهام، إنما هو معتقدات أقبلنا عليها لأننا كنا بها أقدر على الإقبال على ما يرضى نزعاتنا ويشبع رغباتنا، ولأننا بالاعتقاد فيها نتجنب الأزمات العاطفية، ولكننا بالعمل بمقتضاها نصطدم مع ذلك بجوانب من الواقع من آن لآخر. وإذن فمعتقدات السلم ضرورية، ولا مبرر للشكوى من أنها تبدو زمن الحرب كأوهام.

وعلى أى حال، فنحن عندما نشكو منها كأوهام، وعندما تصيبنا بخيبة الأمل، فإنما نفعل ذلك ونحن نعلم أن خلف شكوانا سببين أو عاملين، كلاهما مزق المعتقدات وحررنا من أوهامها، الأول هذا الإملاق الشديد الذى تعانى منه العلاقات الخلقية الخارجية بين الدول، مع أن هذه الدول، داخلياً، تقف حارسة

على العرف الأخلاقى. والعامل الثانى ما يتبدى فى سلوك الأفراد زمن الحرب من وحشية لا نصدق أنها تصدر عن أناس المفروض أنهم شركاء فى صنع أسمى ما بلغته الحضارة الإنسانية من أشكال.

وسأتناول هنا هذا العامل الثانى، وأحاول أن أصوغ بأكبر قدر من الإيجاز وجهة النظر التى تعترض عليه. ولنسأل أنفسنا عن الكيفية التى يبلغ بها الفرد المستويات الخلقية التى يتوصل إلى بلوغها والتى يكون عليها. وقد يتبادر إلينا للوهلة الأولى أن الإنسان منذ ميلاده ينحو بطبعه نحو الخير، وأنه يصدر فى أفعاله عن نبالة أصيلة، وهو رأى لن نناقشه، ونرجح عليه القول بأن الإنسان يجرى عليه التطور، وأن التطور محاولة لاجتثاث كل ميل نحو الشر، ودفعه نحو طلب الخير بتأثير التربية، وبفعل الوسط الاجتماعى المتحضر. ويدعم وجهة النظر الأخيرة التى تقول بالتطور من الشر إلى الخير، أن الإنسان، رغم كل ما يتناوله من تهذيب وما يؤخذ به من تربية، ميال للشر، تظهر عليه دلائله وكلها تشير إلى سيطرته عليه وإحاطته به.

ومع ذلك فهذا القول الأخير الذى طرحناه هو نفسه ما نختلف معه، فهو فى جانب منه على صواب، لكنه من ناحية أخرى يفترض ما نعترض عليه، فالواقع أنه لا صحة لما يقال له اجتثاث الميول الشريرة، وتظهر الدراسات النفسية، أو بالأصح الدراسات التحليلية النفسية أن الطبيعة البشرية فى أخص خصائصها تتكون من غرائز أولية يمتلكها كل الناس، عملها إشباع حاجات أولية معينة. وهذه الغرائز فى ذاتها لا هى بالخيرة ولا بالشريرة، تمر بمرحلة طويلة من التطور قبل أن تبدأ عملها بشكل إيجابى لدى البالغ، ولكنها

أحياناً تتوقف عن العمل، وتتوجه بنشاطها أحياناً نحو أهداف أخرى، وقد تنصرف إلى مناطق أخرى غير المناطق المنوطة بها، وقد تتداخل أحياناً، وقد تغير موضوعاتها، وقد ترتد على صاحبها بشكل أو بآخر، وقد تعارض بعضها البعض وتتخذ فى ذلك أشكالاً تخدعنا عن طبيعتها، كأن تغير محتواها فتتحول من الذاتية إلى الغيرية، أو تقلب فيها القسوة إلى رحمة، وهو أمر سهل طالما أن الكثير من الغرائز يعمل منذ البداية فى ازدواج يضم النقيضين، وهى ظاهرة يلمسها كل ذى عينين رغم أن عامة الناس قد يدهش لها، لكننا نسميها ازدواجية الشعور ambivalence of feeling [1]. ولعل أوضح ما يمكن أن نضرب به المثل لهذه الازدواجية هو شعور الحب الشديد والكراهية المسرفة الذى يكون لدى الشخص الواحد والذى يظهر التحليل النفسى أنه رغم تناقض الحب والكراهية فيه، إلا أن هذا الحب وتلك الكراهية كثيراً ما يتوجهان فى نفس الوقت نحو موضوع واحد بعينه.

ولا تتبلور شخصية الفرد بالدرجة التى يمكن أن نصفها فيها بالخير أو بالشر إلا بعد أن تكون هذه التقلبات التى تتعرض لها الغرائز قد تمت. ومع ذلك يندر أن يكون الإنسان خيراً تماماً أو شريراً على وجه الإطلاق، ولكنه يكون عادة خيراً فى ناحية وشريراً فى أخرى، أو خيراً فى مواقف وشريراً

---

(١) ازدواجية الشعور أو تناقضه : الشعور القوى بالحب والكراهية معاً لنفس الموضوع. والاصطلاح استخدمه بلولر أولا (١٩١١) يصف به التذبذب العاطفي والتأرجح من الحب إلى الكراهية لنفس الموضوع، وما يزال بعض المحللين يصفون الشخص الذى لا يستقر عاطفياً بأنه مزدوج الشعور أو متذبذب عاطفياً. (الحفنى).

فى غيرها. ومن المفيد أن نعلم أن وجود بعض دوافع الشر القوية فى الطفولة قد يكون هو الشرط اللازم لاتجاه بعض الأفراد نحو الخير عند البلوغ. وقد يتحول بعض الأطفال المعروفين بالأنانية المسرفة إلى أناس من أكثر أفراد المجتمع بذلا وتضحية بأنفسهم. ونعلم أن معظم من نعرف من أصحاب النزعات العاطفية وأصدقاء الإنسانية ومناصرى العطف على الحيوانات قد كانوا فى طفولتهم من أكثر الناس اتجاهاً نحو السادية[1]، يسومون الحيوانات العذاب ويلحقون الأذى بالغير.

وهذا التغيير الذى تتعرض له الغرائز يؤدى إليه عاملان يتعاونان على صرفها عن الاتجاه إلى الشر، أحدهما داخلى والآخر خارجى، ويؤثر العامل الداخلى على الغرائز الشريرة أو غرائز الأنانية، ويصرفها عن أنانيتها، وهذا هو عامل الرغبة الجنسية أو الحاجة التى يتفجر بها الإنسان إلى الحب

---

(١) السادية : إنزال الألم بالآخرين أو إذلالهم، شعوريا أو لاشعوريا، بقصد تحصيل الإشباع أو اللذة، وعكسها الماسوكية وهى استعذاب الألم الذى ينزله الآخرون بالمتصف بها. وكلاهما تتميز بهما مراحل النمو المختلفة وخاصة عند الطفولة فيما يسمى السادية الفمية والسادية الشرجية والسادية القضيبية، لكن الدوافع السادية قد تتسامى أو تتعدل أو تحدث ردود فعل معاكسة، وكلها تسهم فى تكوين شخصية صاحبها. وكان فرويد يعتقد أن الماسوكية أو الماسوشية تكمل السادية بمعنى أنها سادية استهدفت ذات الفرد. وعندما تكون السادية انحرافاً فإن السادى يسعى إلى العثور على شريك ماسوكى يتقبل ساديته، وعندئذ يشبع كلاهما نزعات الآخر، ومع ذلك فبعض الساديين يتجهون إلى موضوعات لا تتقبل ساديتهم وتقاومها، ومن ثم تكون لذة السادى أكبر، والسادى من النوع الأخير قد يتحول إلى سفاح أو هاتك أعراض. (الحفنى)

بأوسع معانيه. وتعمل مكونات الحب أو المكونات الشبقية الداخلة فى غرائز الأنانية على توجيهها وجهة اجتماعية وجعلها غرائز اجتماعية. ونحن نتعلم قيمة الحب وقيمة أن نكون محط حب الآخرين، ونتعلم أن حب الآخرين لنا ميزة نضحى فى سبيلها بأية مزايا أخرى تتعارض معها. هذا عن العامل الداخلى. أما العامل الخارجى فهو فعل التنشئة فينا، ودفعها لنا لاحترام ما تطالبنا به بيئاتنا الثقافية، وتأييدها لهذه المطالب، ثم تأتى الحضارة من بعد لتطور أثر التنشئة وتُنمّيه، والحضارة، لو علمنا، لم تقم لها قائمة إلا عندما تخلينا عن رغباتنا فى الإشباع الغريزى، وهى ثمرة نبذنا لهذه الغرائز. وتصر الحضارة أن تتقاضى كل إنسان متحضر أن يتخلى عن رغباته الغريزية وإشباعها. ويظل العامل الداخلى فى محاولة دائبة ليحل محل العامل الخارجى طوال حياة الفرد. وتزيد المؤثرات الحضارية من فرص تحول الميول والاتجاهات الأنانية فى الإنسان إلى ميول واتجاهات غيرية واجتماعية، وذلك كله بفضل امتزاج العناصر الشبقية بمكونات غرائز الأنانية، حتى ليمكن أن نقول فى النهاية أن كل أمر يصدر فى الإنسان من داخله يخدم تطوير صاحبه، ومن ثم تطوير الجنس البشرى، وأنه لم يكن فى الأصل سوى أمر خارجى. وإننا لنطلق اسم التكيف الثقافى على تلك القدرة الشخصية التى لكل فرد، والتى تمكنه من تغيير دوافعه الأنانية إلى دوافع غيرية اجتماعية، بتأثير طاقته على الحب. ونحن نقول إن هذا التكيف يتكون من جزءين، جزء فطرى والآخر مكتسب بفعل الممارسة، ونقول إن العلاقة بينهما، ثم العلاقة بينهما معاً وهذا الجزء من دنيا الغريزة الذى يظل دون أن يعتريه تحوّل أو تبدل، هى علاقة

دائمة التغير. ومع ذلك فنحن نميل إلى أن نولى الجزء الفطرى عناية أكبر، بل نذهب إلى أكثر من ذلك، فنرجح دور القدرة العامة على التكيف للحضارة، نرجحه على دور الغرائز التى تظل على حالها البدائى دون أن يطرأ عليها أى تحول أو تبدل، ومن ثم يجوز لنا أن نقول إن الطبيعة البشرية بهذه الطريقة تتطور إلى الأحسن وتسير إلى أفضل مما هى عليه.

ويُحدث القسر الخارجى الذى للتنشئة وللبيئة فعله على الطبيعة البشرية، ويثمر تحولا فى الحياة الغريزية نحو الخير، وينتج تبدلا من الأنانية إلى الغيرية، لكن هذا التحول، وذلك التبدل، لا يلزمان، بالضرورة أو بصورة منتظمة، عن هذا القسر الخارجى، فالتربية والبيئة قد تغرسان فى الإنسان حب الخير، بحيث يأتيه من تلقاء نفسه، وتبادله البيئة حباً بحب، وتهبه المزايا والمنافع كنتيجة للحب الذى يؤثرها به. غير أن التربية تستخدم نظام الحوافز كذلك لتحفز الأفراد على خدمة البيئة، فتكافئ المحسن وتعاقب المسئ، ومن ثم قد يختار من ستقع عليه آثار المكافأة والعقاب، أن يسلك السلوك الحسن بالمعنى الحضارى للتعبير، رغم أن غرائزه لم يجر لها أى تسامٍ، ولم يحدث لميوله أى تبدل من حال الأنانية إلى حال الغيرية.

والنتيجة واحدة فى الأمرين، سواء كان دافع الفرد هو الحب أم توقع المكافأة، غير أن الظروف وتعاقبها يكشفان دائماً أن أحد الناس يكون حسن السلوك باستمرار لأن ميوله الغريزية تدفعه دفعاً إلى التصرف بهذه الطريقة، وأن غيره يكون حسن السلوك طالما أن سلوكه المتحضر يعود بالنفع عليه ويفى بمتطلباته الأنانية. غير أن المعرفة السطحية بالشخصين لن تمكننا من

التمييز بينهما ومعرفة الدوافع الحقيقية لسلوكهما، ومن ثم نعدهما معاً كحالتين من الحالات التى نجحت فى تحويل غرائزها الأنانية إلى غرائز غيرية، ولذلك نخطئ إذ نتفاءل ونحسب أن عدد الذين تحولوا إلى الخير بالمعنى الحضارى قد زاد زيادة كبيرة[1].

وإذاً فإن المجتمع المتحضر الذى يطالب أعضاءه بأن يسلكوا سلوكاً حسناً، بالمعنى المتحضر لتعبير السلوك الحسن، ولا يكلف نفسه مشقة معرفة الدوافع الحقيقية التى تدفعهم إلى هذا السلوك الحسن، هذا المجتمع قد كسب لنفسه أعداداً هائلة من الناس يدينون له بالولاء والطاعة، ولكنهم لا يأتون ما يأتون بوازع من طبائعهم الحقيقة. ولقد شجعه ما أحرز من نجاح على التشدد، إلى أقصى حد، فيما فرضه من معايير خلقية، ومن ثم باعد بينهم وبين اتجاهاتهم الغريزية أكثر من قبل، وعرّضهم للمزيد من القمع، وأوقعهم تحت ضغوط هائلة، وكشفت ظواهر ردود الفعل وأعمال التعويض عما يعانونه تحت وطأتها، وبانت نتائجها فى مجال الجنس فى شكل الاضطرابات العصابية التى انتشرت ظواهرها، لأن القمع فى الجنس من

---

(١) من ذلك مثلا أن الاشتراكية، وهى فلسفة غيرية، قد انضوى تحت لوائها كثيرون، ولكن ما كاد مدها ينحسر بوفاة عبدالناصر حتى انقلب عليها كثيرون، لأن الاتجاه الغيرى لم يكن أصيلا عندهم، أما الاشتراكيون أو الغيريون الحقيقيون فقد صمدوا ودافعوا عن عبدالناصر، لأن عبدالناصر، بصرف النظر عن أخطائه كان يمثل التيار الغيرى الحقيقى. وكان دفاعهم عن عبدالناصر من هذا المنطلق وحده. (الحفنى)

أصعب ما يمكن أن يفرضه المجتمع على الناس، أما فى غير ذلك من المجالات فإن الضغوط الحضارية لن تكون لها نتائج مرضية، لكنها تكشف عن نفسها فيما يصيب الشخصية من تشوهات، وفى استعداد الغرائز المكفوفة، دائماً، على التمرد والانطلاق نحو الإشباع كلما أتيحت لها الفرصة. وإذاً فكل إنسان يجبر على الحياة باستمرار داخل نطاق المفاهيم الاجتماعية، وطبقاً لمعايير المجتمع التى لا تعبر عن ميوله الغريزية، وبذلك يحيا بالمعنى السيكولوجى فوق مستوى إمكانياته، حتى ليمكن وصفه موضوعياً بأنه منافق، سواء كان يعلم أو لا يعلم أن حياته الظاهرة خلاف حقيقته الباطنة، ولا يمكن أن ينكر أحد أن الحضارة المعاصرة تهيئ بشكل يفوق الوصف لهذا الشكل من النفاق وتؤدى إليه. ومع ذلك فإنه لبقاء الحضارة واستمرارها، برغم أساسها السابق الذى يمكن أن يثور الكثير من الجدل حوله، كان على كل جيل جديد أن يحاول تحقيق المزيد من التحويل الغريزى، وأن يسعى لإحراز قصب السبق فى مضمار تحقيق شكل أسمى من أشكال الحضارة.

وبناءً على ما سبق يجوز أن نخلص إلى أن ما نشعر به من خزى، وما نحسه من أسى مؤلم إزاء ما يظهر من سلوك غير متحضر يصدر عن كل الناس فى كل مكان من العالم، هو شئ لا ينبغى أن نحسه. ويعزينا أن ما نشعر به من خزى وأسى قد قام على أوهام انسقنا إليها، والحقيقة أن إخواننا المواطنين لم يهبطوا فى سلوكهم إلى هذا الدرك الأسفل كما كنا نخشى، لأنهم فى الحقيقة لم يرتقوا إلى كل هذه الذرى كما كنا نعتقد.

ويكشف تطور العقل عن خاصية لا توجد فى أى نوع آخر من أنواع التطور، فعندما تنمو إحدى القرى لتصبح مدينة، وعندما يكبر الطفل ليصير بالغاً، فإن القرية والطفل يختفيان فى المدينة وفى البالغ، وما من سبيل إلى تتبع ما كان لأيهما من سمات سابقة فى الصورة الجديدة التى آلت لهما. والواقع أن المواد والأشكال التى كانت لهما فى الماضى قد نسخت وحلت محلها أشكال ومواد جديدة. ولكن المسألة تختلف مع العقل وتطوره، وحالة العقل هنا حالة فريدة، فكل مرحلة سابقة من مراحل تطوره تبقى وتستمر إلى جوار المرحلة اللاحقة التى تطورت عن السابقة، يحكمها جميعاً نوع من التعايش الذى يفرضه أن كل ما يطرأ على العقل من تغيرات وتبدلات إنما يجرى كَمّاً داخل إطار أن المواد التى يتألف منها هى نفسها لا تتغير. وقد تحتجب إحدى المراحل الباكرة لعدة سنوات، لكنها مع ذلك تظل موجودة، وربما تعود من جديد إلى الظهور وتبرز كوسيلة تعبير عن قوى العقل، كما لو كانت كل التطورات اللاحقة قد بطلت وانتهى أمرها. وقد يحدث أن يعفى على إحدى المراحل الأرقى ثم لا يستطاع بلوغها من بعد، لكن المراحل البدائية تظل دائماً ممكنة البلوغ والاستعادة، فالعقل البدائى عقل لا يفنى، بكل ما فى هذا التعبير من معان. وقد يظن عامة الناس أن ما نسميه الأمراض العقلية. هو بالضرورة كل ما يصيب الحياة العقلية بالدمار، ويلحق الخراب بالنفس. والواقع أن الدمار لا يصيب إلا المراحل والأطوار اللاحقة. وربما كان جوهر المرض العقلى أنه عودة إلى طرقه الأولى فى العمل، وظروفه الأولى التى كانت عليها حياته الانفعالية.

وإذاً فإن ما يطرأ على الغريزة من تحول، هذا التحول الذى يقوم عليه التكيف الثقافى البشرى، يمكن أن يتوقف ويبطل بفعل تجارب الحياة إما بشكل دائم أو مؤقتاً. ولا شك أن الحرب على رأس القوى التى يمكن أن تفسد هذا التكيف، لكن ذلك لا يعنى أن كل من يشارك فى السلوك الهمجى فى زمن الحرب قد فقد تكيفه الثقافى، فلربما استعاد تحضر غرائزه فى زمن السلم.

وهناك، مرة أخرى، ظاهرة أخرى لمسناها فى الناس فى عالمنا اليوم، ربما أثارت فينا من الدهشة، وصدمتنا صدمة لا تقل فى تأثيرها عن الصدمة التى اعترتنا لما أصاب الناس من تدهور خلقى أفزعنا أمره كثيراً. وأقصد بهذه الظاهرة ضيق الأفق الفكرى الذى لفت نظرنا فى أحسن المفكرين، وصلابة دماغهم وعدم تأثرهم بما يقدم لهم من براهين حتى لو كانت أسطع البراهين وأدمغها، وتصديقهم الأعمى مع ذلك لقضايا متهافتة ربما كانت من أكثر القضايا تهافتاً. وإنها لصورة محزنة حقيقة تلك التى أقدمها هنا، لكنى أحب أن أؤكد أنى إزاءها لست من المتحزبين ضد أهل الفكر، ولست ممن لا يرون فيهم إلا النقائص، ومع ذلك فإن ما نلمسه فى الفكر من نقائص، وما نجده فى الفكر من سلبيات، يمكن تفسيره بأسهل مما فسرنا به الظاهرة السابقة، فلقد علّمنا علماء الطبيعة البشرية والفلاسفة أننا نخطئ إذ نجعل الذكاء هو القوة الأفعل، ونتجاهل اعتماد الذكاء على الحياة العاطفية، ولقد علّمونا أن الذكاء البشرى يعمل بكفاءة عندما يكون بمنأى عن النوازع العاطفية القوية، وإلا فإنه يتصرف كمجرد أداة فى خدمة الإرادة، يستخرج من البراهين والنتائج ما يكون فى مصلحة الإرادة.

وأكدت تجربة التحليل النفسى هذه النتيجة، وماتزال تكشف لنا كل يوم أن أذكى الناس يتخلى عنهم ذكاؤهم فجأة، ويتصرفون كالحمقى حالماً يتواجد ذكاؤهم فى مواجهة مع مقاومة عاطفية، ولكنهم بمجرد أن يتغلبوا على هذه المقاومة فإنهم يستعيدون الحدة التى كانت لذكائهم. ومن ثم فإن المنزلقات المنطقية التى تخدع إخواننا المواطنين عن أنفسهم، وكثير منهم من النابهين وأشد الناس ذكاء، إنما هى ظاهرة ثانوية، ونتيجة للاضطراب العاطفى، ونأمل أن تختفى بانتهاء الحرب.

ولعلنا نكون قد توصلنا بذلك إلى فهم إخواننا المواطنين الذين نراهم قد نأوا عنا كثيراً، ولعل ذلك يجعلنا أكثر تحملا لما قد تتسبب فيه المجتمعات الصغيرة والأمم الكبير من مآس، لأننا قد رأينا أن ما يمكن أن نطالبهم به[1] ينبغى أن يكون فى حدود استطاعتهم، وهى استطاعة محدودة. ولربما كانت هذه الأمم تستعيد فى نفسها تجربة الفرد فى التطور، وأنها ما تزال حتى اليوم فى أشد مراحله بدائية من حيث التنظيم والشكل الذى يمكن أن تقوم عليه أرقى الوحدات الاجتماعية.

---

(١) يتحدث فرويد هنا لليهود، يريد أن يقول إن ما يمكن أن يطالب به اليهود الأمم قليل، وذلك لأنه كان يعتقد أن الأمم تظلم اليهود فى زمن الحرب، والحقيقة أنه فى زمن الحرب يحدث كثيراً أن تعانى الأقليات، ولم يكن اليهود إلا جالية ضمن جاليات الأقليات، وليس من سبب يدعو فرويد إلى تخصيص اليهود دون سواهم بهذه المخاطبة إلا لشعوره بالانتماء اليهودى، والواقع أن أغلب كتابات فرويد السياسية والاجتماعية قد اتجه فيها وجهة يهودية يدافع بها عن قضايا يهودية محضة، مثلما فعل فى كتابه «موسى والتوحيد» من ترجمتنا. (الحفنى)

ونحن نفتقد فى حالة الأمم عامل القسر التربوى الخارجى، الذى يجبر الفرد على الأخذ بالأخلاق، والذى نجح أشد النجاح فى حالة الأفراد. ولقد كنا نأمل حقيقة أن يكون التشابك الواسع للتجارة والإنتاج نواة هذا القسر الذى يجبر الأمم والمجتمعات الكبيرة على الأخذ بالأخلاق، لكن الأمم ما تزال أكثر استعداداً للانصياع لأهوائها الخالصة من الانقياد لمصالحها، بل إنها لتوظف مصالحها فى خدمة وتبرير أهوائها، وتتفنن فى استعراض مصالحها تبرر بها إشباع أهوائها، والواقع أننا نحار فى تفسير الأسباب الحقيقية التى من أجلها تكره الأمم بعضها البعض، وتحتقر بعضها البعض، وتزدرى كل منها الأخرى حتى فى أوقات السلم. ولربما استطاعت مراحل التطور المستقبلة، بطريقة ما، أن تغير من هذا الواقع المؤسف. غير أنه يلزم أن يكون هناك كذلك مزيد من الصدق والاستقامة فى التعامل الشخصى بين الأفراد بعضهم وبعض، وبينهم والذين يحكمونهم، لأن ذلك يجعل التغير الذى ننشده أسهل تحققاً وأقرب منالاً.